



الرواية التاريخية

جنة الطوارق نموكجا

«توطئة:

كثير الحديث في الأعوام الأخيرة عن الرواية التاريخية، والتاريخ والرواية... حتى غدت هوس الجميع، والشغل الشاغل للكتاب والنقاد والمخرجين والمنظمين للمؤتمرات الأدبية.. فانخرط في هذه الموضة الكثير، وتبرم منها آخرون، وكتبوا الرواية المضادة التي تشكك في صدق التاريخ، وتقلل من شأنه بدلا عن الرواية التي تمتع من التاريخ، وتعتمد مادته فتظل رهينة لحقائقه وخصائصه بما في ذلك لفته.. ويصبح المؤرخ ساردا ينطلق من وثائق...

أما الرواية فتنتج تاريخها لبشر عاديي يهملهم التاريخ الرسمي، يعيشون في قاع المجتمع، لا يهتم بهم أحد.. في حي مهجور، يعيشون حياة بسيطة فتقتص لحظاتهم، وتشيد بها معمار حياة موازية فتضج بالحركة والصخب، فتنتقل من الشفاهي إلى الكتابي... وتنتج ما لا ينتجه التاريخ.

«الرواية وما علاقتها بالتاريخ:

الرواية جنس أدبي يعتمد فيه الروائي الخيال لينقل الحياة بإعادة تصويرها بعبارة أخرى عالما موازيا للعالم المعيش مما ينعكس في ذهنه. ويعرفها الناقد د. محمد غنيمي هلال بقوله: «الرواية كالحياة، معقدة متعددة الجوانب، ممتدة حية المعالم، وقصد المؤلف فيها إلى حكاية الفشل أو النجاح أقل من قصده إلى عرض مناظر، وتحليل شخصيات، ترمي إلى هدف واحد يتصل بحال الإنسان في موقف خاص، وما يحيطه به من بؤس، وما يتوعده من أخطار، وما يمكن أن يواجه به هذه الأخطار بما لديه من وسائل وبما منح من إرادة، ويتكشف هذا كله عن فكرة كبيرة، وهي بيان موقف إنساني يكون فيه جهد الإنسان ذا معنى»⁽¹⁾.

إذا، فالرواية متصلة بقضايا الناس وآلامهم في إطار فني تتشابك فيه الأحداث، وتتمو لتصل إلى الذروة ثم الحل.



إدريس الزمامي - المغرب

صهيون، وغيرها. وكتب ست مجموعات قصصية. فأين تتوقع رواية جنة الطوارق^(٢).

«الرواية بنت التاريخ»

جاءت رواية جنة الطوارق لأحمد توفيق؛ لتجسد تجربة لها خصوصيتها اللغوية والفنية ما دامت رواية جديدة.. وقد اشتغلت على سؤال كبير وسعت إلى الإجابة عنه، إنه الهجرة السرية! هذا الباب المشرع نحو العالم المجهول: ... الجنة، الجحيم، كما جاء في الرواية...

وهي بذلك تحاول التأريخ لهذا الحدث الذي هز المجتمع العربي والمغربي خاصة، نظرا للمآسي والفواجع التي تركها ضياع كثير من الشباب في عرض البحر، وأدغال الغابات وغياهب السجون هناك! (وراء البحر) ..

إنه تاريخ إبداع وإبداع تاريخي لشباب مغاربة وهم يصارعون الموت على ظهر قارب «موت» من صنع أيديهم... وفي

اللحظات العصبية حين مواجهة طائر الموت المر نجد «سليمان الطالب الجامعي الذي يتماهى مع طارق بن زياد الذي ركب البحر وأحرق المراكب، يمضي نحو تحقيق المجد، تحقيق حلم الأمة، نشر الاسلام في أوروبا، بينما طارق اليوم (المهاجر) لا يتعدى حلمه أرنبة أنفه! تحقيق الحطام: سيارة، منزل، شقراء، ورصيد في البنك... إن وجد إلى ذلك سبيلا^(١)، وتأتي الوثيقة التاريخية (خطبة طارق...) لتشهد على الحياة لا للتزيين وتأثيث النص بديكور براق، بل لتصحيح ما شاب الحدث من تشويه وتحريف، خاصة لدى شبابنا المعاصر الذي أهمل تاريخه ورموزه... إلا أن الحوار

والرواية التاريخية قد يكون موضوعها الحرب والسياسة والانقلابات والصراعات المريرة على السلطة والنفوذ، أو تعود إلى الماضي لتستثمر أحداثه في قالب فني، معتمدة على الوجدان والأخلاق. فتكون قيمة الأولى بسيطة غير ذات أهمية كروايات جرجي زيدان. والروائي ليس مؤرخا، بل فنانا يسعى إلى إيقاظ المشاعر الإنسانية وتحريكها نحو الخير ضد الشر، والشعور بالخجل أمام بؤس الآخر واغترابه. وتكون الرواية دواء للنفوس العليلة، وقد نلمس

عند جيل الأربعينيات من كتاب هذه الأمة هذه النظرة، فكان التاريخ مطيهم لطرح الأسئلة الكبرى التي أرقت الأمة عند كل من محمد سعيد العريان وعبد الحميد جودة السحار، وعلي الجارم، وعلي أحمد باكثير، الذي يقول: «لعل اهتمامي بقضايا الأمة العربية ذو أثر في ولعي بالتاريخ واستلهامه، على أن هناك أسبابا أخرى منها: أن الفن عموما ينبغي عندي أن يقوم أكثر

ما يقوم على الرمز والإيحاء، لا على التعمين والتحديد، فتكون الحقيقة التي يصورها العمل الفني أوسع وأرحب من الحقيقة التي يصورها الواقع».

وأحداث التاريخ تعين الكاتب على بلوغ هذه الغاية أكثر مما تعينه أحداث الجيل المعاصر^(٢).

وقد أنتج باكثير روايات منها: وإسلاماه، والثائر الأحمر، وسيرة شجاع، وهي ذات حس إسلامي عربي، تصور الصراعات والحركة في الأوطان.

واستدعى الدكتور نجيب الكيلاني التاريخ الإسلامي ليقدم نماذج رائعة لحضارتنا (حوالي أربعين رواية)، منها: نور الله، وعمر يظهر في القدس، ودم لفظير



أحمد توفيق



أما سعيد بن الفني^(٥) فمغامرته لم تكن إلا رغبة في تحقيق نزوات عابرة، لكنه عاد إلى رشده بعد تجربة مريرة انتهت بعودته إلى الله والوطن، وتعاون مع عبدالهادي في استثمار أموالهما في الوطن، ونجحت مشاريعهما وامتدت فروعهما إلى أوروبا، عكس عبدالرحمن الذي لم يأخذ بنصيحة صديقيه سعيد وعبدالهادي بترك التعاون مع العصابات في المحرمات، فأغواه الاغتناء السريع، فانتهى به إلى أحد سجون مرسليليا لقضاء ما تبقى من حياته في زنزانة معزولة، ومطارق الشعور الذنب لا تهدأ من القرع.

إلا أن نهاية النص في حكي دائري ابتدأ من الحلم بالجنة، إلى العودة إليها حلما وواقعا، أرخ لفضاء مهمش مهمل في ريف الوطن، منحدر من الشخصيات، فحاول الراوي أن يضع أصبعه على الجرح الفائر، سبب الهجرة الرئيسي في افتقار القرية إلى البنيات التحتية، وانڈثار أشجار الغابات والحقول بسبب الإلتاف البشري والجفاف، فأثر في الفلاحة والرعي، فهاجر الكثير من الناس إلى المدينة، ومن بقي فضل الهجرة الخارجية وخاصة السرية لغلاء عقود التشغيل وأوراق الإقامة من خلال الزواج^(٦).

«خلاصة:

ساهمت جنة الطوارق في التحقق والتأكد من صحة وقائع العبور لطارق بن زياد - رحمه الله - وإصراره على تحقيق حلم واسع يتجلى في فتح ما وراء البحر... لا يملك إلا سيفه وإيمانه، أما الطوارق الجدد فجعلهم لا يهتمون إلا بذواتهم وجمع التراب، ولم يكن الهدف من هذا التأريخ التسلية والإعجاب بقدر ما كان هو العبرة والشهادة على صدق الناس وكدهم وكفاحهم، وعلى ضعف آخرين ومجازفتهم في منطقة أهملها التاريخ، فكان التاريخ الأدبي العميق للحدث الهدف الرئيسي. ■

الداخلي كشف فيه الكاتب عن وعي سليمان وسبب تورطه وغيره مثل سعيد بن الفني في هذه المغامرة حين أهدق الخطر بالركب، وعانق الموت بعينين مفتوحتين... هنا تأتي قمة الألم والانهيال فتهون كل الدنيا أمام لحظة يغالب فيها الإنسان الموت.

ويحاول دفعه بما ملكت يده من جدوى... هو الاستسلام لقدر الله! ماذا يملك المنهوك غير الاحتماء بالدعاء والفرار إلى الله؟



ويواصل سليمان سرد قصته بعد أن نجا من الموت بأعجوبة، فوجد نفسه مرميا فوق سرير بالمستشفى، واعتقد نفسه «ميثا حيا» واسترسل يصور ما يدور في نفسه من كمد...

هذه التجربة القاسية أضرمت في صدره نار الحقد على الوطن، وانتقم منه بالزواج من رومية بعد فشله في الزواج من ابنة خاله التي حاولت استغلاله... فأنجب منها أطفالا، واندمج في المجتمع الفرنسي، وغير جلد، وصرم حبل الوصال مع الأهل والوطن والدين...! ما عاد يذكر ماضيه وهويته إلا حين إظلام الدنيا أمام عينيه، في حال الضعف والانهيال طبعاً.



قلبي هناك

— حورية وجدي - الجزائر —

هل راكبٌ ذاهبٌ للقدس يأتيني
برشفة من شذا حقلي ومزرعتي
بنظرة من عيون الفجر ترمقني
وقرية بقضاء القدس تذكّرني
فارقتها مكرها والقلب يعشقها
قلبي هنالك .. قد خلفته دنفًا
قلبي هنالك .. يحيا بين من حملوا
قلبي هناك مع الأطفال يرجمهم
قلبي هناك .. مع الأسرى وأهلهم ..
قلبي هناك وقد أعيا البعاد دمي
على الشتات أنا عمرٌ يحنُّ إلى
كنا نعيش بأحلى الأرض قاطبة
وكانت الشمس تدنو كي نقلّها
فنحن سرُّ الهوى المعقود من زمن
من بعدنا الشمس لا تزهو ببسمتها
من بعدنا الصبح يا قدسي تكدره
حتّى المأذن تشكوهم لبارئها
يا قدس يا غرّة الدنيا وزينتها
أشربت طفلي هواك .. فانبصري دنفًا
نعود يا أبتي .. للقدس في غدا
فلست أرضى بديلا عن ربا وطني
قد فاقني في الهوى طفلي فمللني
جيل يُعدّ رباط الخيل يعشقها
جيل تفجّر من أصلاب أمتنا
يا قدس يا أملا في القلب أحمله ..
ما زال وجهك نبع الصبر في خلدي
قلبي هناك .. أبى وصلا لغيركم

بقبضة من ثراها كي يُداويني
ترد فيّ دماء الروح تحييني
في مسجد ظل مشتاقا ينادينني
ومنزل في رباها كان يؤويني
واسترجعته وبات البعد يكويني
يبقى وفيًا إلى الأقصى ويجفوني
سلاح عزّتهم في وجه صهيون
بالجمر واللهب المعجون بالطين
ينازل الشوق في قلب الزنازين
بالله أسألكم .. إليه رُدوني
ماضي الطفولة في بعدي يواسيني
ونقطف الزاد من أحلى البساتين
عقدا نوشيّه من عطر الرياحين
ما بين شمسك والزيتون والتين
قد بات وجه الدُّنا من غير تلوين
أقدامٌ من سرقوا أرضي وزيتوني
تظل تُنظرهم يوما كحطّين
ما زال عشقك نبضا في شراييني
يُسابق الشوق للأقصى ويحدوني
تسري مواكبنا بين الملايين
مدى الحياة .. ولن أرضى بتوطين
بأن جيلا سيأتي سوف يشفّيني
وقوة من سلاح العلم والدين
يواجه الموت كي تحيا فلسطيني
يبقى يصارع وجدا كاد يُفنيني
يحنو عليّ وفي ضعفي يقوّيني
عسى أعود .. وفي الأقصى يلاقيني ..